الصناعة والتجارة في واسط

بقلم : يوسف يعقوب مسكوني

للصناعة والتجارة اهمية عظيمة في تاريخ الامم والشعوب • فهما مدار حياتها وسبب رفوه عيشها وركن من اهم اركان سعادتها في الحياة الدنيا • لذلك كانت الامم والممالك تهتم بهما كل الاهتمام وتسعى في انمائهما مهما كلفها الامر وبكل ما بلغت من الجهد والطاقة في اكثارهما وتنشيطهما • ولولاهما لشلت الحركة التعاونية بين الفرد والمجموع تلك الحركة التي تعد نقطة الارتكاز بين نظم المعيشة وسبل الحياة • وهذه واسط المدينة العريقة في القدم قد ضربت شوطا بعيدا في وفرة غلاتها وازدياد منتوجها واتقان صناعتها كما شهد لها بذلك مشاهير المؤرخين السابقين واساطين الكتاب الاعلام السالفين •

محاصيل واسط وموارادها التجارية :

ان ما اورده اقدم المؤرخين عن مواردها ومحاصلها التي ضربت رقما كبيرا في مقياس التجارة يعد من الامور التي لا تكاد تصدق • فقد روى المقدسي في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ان واسط حسنة الاسواق واسعة السواد[1] كثيرة الخير ومعدن السمك[2] • وذكر اليعقوبي في كتاب « البلدان » ان خراجها داخل في خراج طساسيج السواد[3] ويتصل بها نهر ابان وبه يصنع الفرش الذي يعمل منه الارمني ثم يحمل الى ارمينية فيغزل وينسج • ثم الى عبداسي ثم الى المذار وهي مدينة ميسان[4] • ولما كانت مدينة واسط قد بنيت على انقاض مدينة

(١) اي واسعة الخضرة والاراضي المزروعة •

(٢) ص ١١٨ من طبعة ليدن •

(٣) ينقسم كل طسوج الى عدة قرى واكثرما تستعمل هذه اللفظة في سواد العراق • وقد قسم سواد العراق الى ستين طسوجا اضيف الى كل طسوج اسم • والسواد هي البساتين والمزارع من النخيل والاشجار اذا التفت واتصل بعضها ببعض فسموه سوادا لخضرته بالزروع والاشجار وقد يسمى الاخضر سوادا والسواد اخضر •

(٤) ص ٨٤ طبعة النجف •

« كسكر » اتاريخية فقد روى ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيـون الاخبـار » ان واسط مشهـورة بالفراريج الكسكريـة وجدائهـا الكسكرية(٥). ومما ذكره البكرى ان معنى كسكر يدل على الارض الصالحة للزراعة وباللغة الفارسية انها كشتيكار(٦). وبمعنى آخر ارض الحنطة او بلـد الشعيـر على ما يدعيه ياقوت الحموى على لهجة اهل هرات(٧). وذكر صاحب المجدل مارى بن سليمان انها تلفظ كشكر(٨) فتكون لفظة كسكر اى كشكر عربت عن لفظة « كشتكار » اى الشعير وان هذا اللفظ كان ذا رجا ابان سيادة الساسانيين . وعرفت فى العصر الادبى الاموى بهذا الاسم ايضا .

اما ما سجله ابن حوقل الذى كان فى واسط سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ونقل عنـه المستشـرق لسترنج فى كتابه « اراضى الخلافة الشرقية » ان واسط كانت تمد الخزينة بمليـون درهم اى مـا يساوى اليوم ٤٠٠٠٠ دينار تجبى من ضرائبها. ونقل هذا المستشـرق ايضا عن اليعقوبى والمقدسى ما خلاصته :ـ

ان الاراضى التى كانت بواسط كثيرة الخصب وكانت تمون بغداد من محصولاتها ايام ندورتها. وكانت اسواق المدينة فاخرة ومجهزة جيدا . وعلى نهايتى جسرها رصيفان صغيران كانت ترسو فيهما الزوارق والسفن للاستراحة بعد تفريغ البضاعة. وبقيت واسط فى طول عهد الخلافـة من اعظـم المدن المهمة فى العراق(٩). ونقل آدم متز عن ابن رسته ان دجلة فيما بيـن واسط والبصـرة كان يتشعب ثلاث شعب تنصب كلهـا فى مستنقعـات وآجام تسمى البطائح . وكانت السفن اذا وصلت اليها القت ما تحمله الى زواريق تجتاز هذه المنطقة فتجرى فى شبه ازقة من قصب وبين هذه الازقة مواضع متخذة من قصب اشباه الدكاكين عليهـا اكواخ وفيهـا قوم يحرسون الزواريق فى هذه المنطقة الغريبة التى يتخلل آجامها بين حين وآخر رقعة من الماء الذى لا شجر فيه . وكان فى كل كوخ خمسة رجال وهى شبيهة ببيت النحل وليس

---

(٥) ج ٣ ص ٢٥٠ طبعة مصر .

(٦) معجم مااستعجم ج ٢ ص ٤٨٠ من الطبعة الحجرية الاولى .

(٧) معجم البلدان لياقوت الحمـوى ج ٧ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ من طبعة مصر وجاء ايضا فى مادة كسكر انها كورة واسعة ينسب اليها الفراريج الكسكرية لانها تكثر بها جدا رأيتها انا تباع فيها اربعة وعشرون فروجا كبارا بدرهم واحد .
قال ابن الحجاج :ـ
ما كان قط غذاؤها [كذا] الا الدجاج المصدر
والبط يجلب اليها لكن يجلب من بعض اعمال كسكر وقصبتها اليوم واسط القصبية التى بين الكوفة والبصرة وكانت قصبتها قبل ان يمصـر الحجاج واسطا خسروسابور ويقال ان حد كورة كسـكر مـن الجـانب الشـرقى فـى آخـر سقى النهروان الى ان تصب دجلة فى البحر كله من كسكر . . . وقال ايضا :ـ ان خراجها اثنا عشر ألف ألف مثقال .... قالوا وسميت كسـكر بكسكر بن طهمورث الملك الذى هو اصل الفرس .

(٨) فى اماكن عـديدة من الـكتاب راجـع الفهرست الابجدى مادة (ك) .

(٩) ص ٢٩ وما بعدها ـ The Lands of the Eastern Caliphate ـ وكذلك المقدسى ص ١١٨ .

لهـا شبـابيك وفيهـا كان الحراس يكتنون من البق[١٠] وفى كتاب تاريخ الوزراء للصابىء ان لكسكر زكاء الارض وجودة الغلات[١١]. ولواسط اسواق فخمة لمختلف الحاجيات والغلال والمصانع فقد ذكر اسلم بن سهل الرزاز المعروف ببحشل فى مخطوطه عن تاريخ واسط اسواقا للبـزازين والرزازين والخرامين والعطـارين وكذلك فعل ابن النجار فى تاريخه المجدد لمدينة السلام وهو مخطوط بالمكتبة الاهلية بـاريس[١٢] وذكر ابن الساعى الخازن فى كتابه الجامع المختصـر سوقا للخشب وهو الذى فيه دور بنى الهروى[١٣] وغير هؤلاء ممن ذكروا اسماء لاسواق عديدة استطرادا كما ذكر القاضى التنوخى فى كتابه الفـرج بعد الشدة سوقا أو خانا للكتبيين[١٤]. وذكـر فى كتابه جامع التواريخ المعروف (بنشوار المحاضرة) خانات للصفـارين[١٥] وذكـر ايضـا سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمـان فى حـوادث ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) ان حريقا حدث فى واسط فاحرقت النار البزازين والنحاسين واضرت باهل واسط ضررا كبيـــرا . وهكذا نجـد ان مدينة واسط الراكبة دجلة من الجانبين آنئذ كانت زاهرة فى علمهـا غنية فى مواردهـا تمير بغداد والبصـرة اشهرا وكذلك المدن المجاورة لها بالمؤن والذخائر ابان الحروب وحدوث القحط والمجاعات كمـا ذكر صـاحب النجـوم الزاهـرة ابن تغـرى بردى[١٦] . ومما قاله فيها ابن بطوطة الرحالة الشهير فى رحلته ان واسط حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار[١٧].

واما ما ذكره ياقوت الحموى فى مادة واسط من معجم البلدان فما يفـوق تصـوره للعقـل من الرخص والرخاء اللذين كانـا فى عهـده عندمـا زارها فى اسفاره فقال ما نصـه :ـ (ورأيت انا واسطـا مرارا فوجدتهـا بلـدة عظيمـة ذات رساتيق[١٨] وقرى كثيرة وبساتين ونخيلا يفوت الحصر . وكان الرخص موجودا فيها من جميع الاشياء بحيث انى رأيت فيها كوز زبد بدرهمين واثنتى عشرة دجاجة بدرهم واربعـة وعشـرين فروجا بدرهم والسمن اثنى عشر رطلا بدرهم والخبز اربعون رطلا بدرهم واللبن مائة وخمسون رطلا بدرهم والسمك مائة رطل بدرهم وجميع ما فيها بهذه النسبة »[١٩]

(١٠) الاعلاق النفيسـة لابن رستة ص ١٨٥ والحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ج ٢ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(١١) ص ٣١٨ .

(١٢) مجلد العين والفاء .

(١٣) ج ٩ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(١٤) ج ٢ ص ١٢٢ ط علام .

(١٥) ج ٨ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ط المجمع العلمى بدمشق .

(١٦) ج ١ ص ٤٥

(١٧) ج ١ ص ١١٤ .

(١٨) هى القرى وما يحيط بها من الاراضى مفردها رستق ورستاق وقيل الرزدق والرزداق فالرزدق معناه الصف من الناس او النخل والرزداق القرى وما يحيط بها من الاراضى والجمع منهـا رزداقات ورزاديق .

(١٩) معجم البلدان لياقـوت الحمـوى ج ٨ ص ٢٨٣ ط مصر .

ونقل المستشرقون ومنهم شتريك عن ابن حوقل :ـ ان طبيعة الارض واوضاع المناخ تجعل واسط محوطة بالصحراء غربا وفى منتهى هذه الصحراء بعض الحقول المعشوشبة وبعض النخيل والاشجار الاخرى وكذلك بعض المروج . وهواؤها اصح من هواء البصرة اذ لا تنتشر المستنقعات كثيرا بل فيها السهول المزروعة اى الرساتيق الدائمة الخضرة . وكما يقول ايضا أنها كانت تمد بغداد بالمؤونة كلما كان الحصاد رديئا. ويأخذ عن المقدسى فى الفات النظر الى توسع زراعة الحنطة وكثرة الاسماك . وان اسباب العيش فيها ميسورة فالهواء صحى والماء عذب والاسواق حسنة وارض السواد تأخذ مساحة جسيمة ثم يذكر قراها الغنية و (عمر واسط) اى دير واسط ذا البناء الفخم المحوط باشجار النخيل بينها وبين دجلة . والقادم اليه يراه كأنه امامه لاكتظاظ النخيل . ومما ينقله عن القزوينى قاضيها المشهور والمدرس فى مدرستها الشرابية حيث قال :ـ « ان لواسط خطأ واحدا وهو ان خراجها يكون لغيرها ولو بقى فى يد اهلها لكانت واسط تفوق جميع البلاد فى بركة زروعها . فلا يرى الانسان مدينة ابهج منها فى منظرها الجميل واحلى شيء لدى المرء انه يشاهد قصورا جميلة وحدائق غنا وماء جاريا. ثم يعود الى قول ابن حوقل ان واسط احدى الاقاليم الستة وان اقليمها يعادل جميع مناطق الادارة المستقلة فى العراق آنذاك برعاية عامل حازم شاهدته بنفسى سنة ٣٥٨ هـ . (٩٦٨ م) . فكا نما يدفعه من الضرائب الى سلطة الجباية فى بغداد ما قيمته ستة ملايين درهما . وان اقليم كسكر السهل المزدحم بالسكان يغل اثنى عشر مليونا من الدراهم».(٢٠) اما ما قاله ابن حوقل بالحرف فهو :ـ « ان واسط مدينة تحيط بحدها الغربى البادية بعد مزارع يسيرة وهى خصبة كثيرة الشجر والنخيل والزرع واصح هواء من البصرة وليس لها بطائح ولها ارض واسعة ونواح فسيحة وعمارة متصلة وبها قوام مدينة السلام اذا اسنت نواحيها أو عيهت(٢١). ونواحى واسط عمل مفرد من اعمال العراق لعامل جليل نبيه خطير . وحضرتها وقد جرى ذكر عقدها على ابى الفضل فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وكان ستة آلاف الف درهم.»(٢٢) ثم نراه يقول فى موضع آخر : « وحضرت عقد ضمانها من حد تكريت الى حدود واسط بجميع طساسيجها واعمال الكوفة المضمونة اليها من جميع وجوهها واسبابها على ابى الفضل الشيرازى فى السنة المذكورة آنفا » . ثم قال ايضا :ـ « وقد تقدم ارتفاع البصرة وواسط عند ذكرهما وانهما تضمنتا معا باثنى عشر الف الف درهم فى عين السنة المذكورة»(٢٣).

---

(٢٠) Die Alte landschaft Babylonien nach den Arabischen Geographen. By Streck. Wasit 318-333

(٢١) اسنت معناه اصابه الجدب والقحط وعاه يعيه عيها اصابته العاهة .

(٢٢) صورة الارض لابن حوقل ج ١ ص ٢٣٩ ط. اوروبة .

(٢٣) صورة الارض لابن حوقل ج ١ ص ٢٤٧ ط. اوروبة .

ومما لابد من ذكره هنا ما قاله ابن خرداذبة فى كتابه (المسالك والممالك) وهو : « ان جوالى واسط ثلاثون الف درهم والجوالى جمع جالية وهو ما يجمع من الجزية من اهل الذمة فقط»[٢٤]. ومما اورده الصابىء فى كتاب تاريخ الوزراء ان حامد ابن العباس احد وزراء بنى العباس كان يحمل الى السلطان مائتين واربعين الف دينار فى كل سنة من واسط . ويعترف بانه كان يغل ضمان هذه الناحية سبعمائة الف دينار[٢٥]. ويقول فى مكان آخر ان حامد بن العباس استخرج من ابن الفرات الف الف وثلثمائة الف دينار لا يعلم بها احد غير حامد وكان منها اربعمائة ألف وكسر من آبار واسط[٢٦]. وقبل ان نختم بحثنا عن تجارة واسط نذكر ان ولستد يقول :ـ ان من موارد الواسطيين الاسماك والطيور[٢٧]. وقال لسترنج ان واسط كانت تصدر نوعا من السمك يدعى Lupins Wal Fish ـ وجاء فى معجم الحيوان للفريق امين المعلوف ان (اللوبنز) اى (ولفش) سمك له خلقة الذئب[٢٨] والسمك المجفف المسمى شيم Shim . قال صاحب المعجم المذكور ان فصيلة الشيم فصيلة من رتبة شائكة الزعانف منها الشيم والزامور والقدقود والضيراك والجدابة والشخورة[٢٩]. وقد قال جايكار الذى ترجم كتاب حياة الحيوان للدميرى الى الانكليزية ان السمك سيم اسمه فى عمان صيم واحدته صيمة[٣٠]. هذا ما رواه لسترنج عن صادرات واسط فى الاسماك[٣١]. ويذكر لنا متز نقلا عن المقدسى انه كان ببحيرة طبرية نوع من السمك منه البنى الذى حمل اليها من واسط[٣٢] اما تجار واسط فلم يذكر منهم المؤرخون الا النزر اليسير وذلك استطرادا ايضا فممن اشتهر منهم يحى بن معين من تجار اهل واسط ذكره الخطيب البغدادى[٣٣] وذكر ياقوت فى معجم البلدان العفيف مرجا الواسطى التاجر وهو من تجار واسط فى القماش مر بدير برصوما وهو قرب ملطية قاصدا بلاد الروم قال ياقوت فى مادة (دير برصوما) ما نصه بالحرف :ـ « حدثنى العفيف مرجا الواسطى التاجر قال اجتزت بدير برصوما قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له وان الذين ينذرون له قل ما يخالف

(٢٤) ص ٥٩ ط اوروبة

(٢٥) ص ٩٤ ط اليسوعيين

(٢٦) تاريخ هلال الصابىء ايضا ص ٣٠٢ من الطبعة المذكورة .

(٢٧) ج ١١ ص ٩٩٩ .

(٢٨) المعجم المذكور مادة ولفش Walfish

(٢٩) المعجم المذكور آنفا مادة شيم Shim وص ٢٥١ .

(٣٠) ونقل صاحب المعجم المذكور ايضا عن جايكار مترجم كتاب الحيوان للدميرى ج ٢ ص ١٣٩ .

(٣١) اراضى الخلافة الشرقية The Lands of The Eastern Caliphate للسترنج ص ٨١ .

(٣٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ج ٢ ص ٢٩٤ وقد نقل عن المقدسى من ص ١١٨ .

(٣٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٦ ص ٢٤٣ .

مطلوبهم وان برصوما الذى فيه احد الحواريين فالقى الله على لسانى ان قلت ان هذا القماش الذى معى مشتراة بخمسة آلاف درهم فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالى خمسون درهما فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء فعجبت فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما وسألتهم عن الحوارى الذى فيه فزعموا انه مسجى فيه على سرير وهو ظاهر لهم يرونه وان اظافره تطول فى كل عام وانهم يقلمونها بالمقص ويحملونها الى صاحب الروم مع ماله من القطيعة والله اعلم بصحته فان صح فلا شىء اعجب منه » .(٣٤) ومنهم عبدالله بن عبدالمؤمن بن الوجيه التاجر السفار الواسطى ذكره الامام العلامة شمس الدين بن محمد الذهبى فى طبقات القراء الموسوم بـ « معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار » وقد توفى سنة ٧٤٠ هـ . وذكره ايضا تقى الدين بن قاضى شهبة فى ذيل تاريخ الاسلام .(٣٥) وتقى الدين بن رافع ونقله عنه تقى الدين الفاسى فى منتخب المختار وممن ذكره أيضا ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة.(٣٦)

(٣٤) معجم البلدان (٤ : ١٢٦ مصر)

(٣٥) افادناه الاستاذ البحاثة الدكتور مصطفى جواد .

(٣٦) ج٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ من الدرر. وكذلك نقل الاستاذ المحامى عباس العزاوى ترجمته عن صاحب الدرر فى كتابه تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ٤٠ وذكر له ما خلاصته :ـ « هو تاج الدين ويقال نجم الدين عبدالله عبدالمؤمن

وانى اعتقد ان الذى جعل زمرة من المؤرخين يترجمونه جمعه بين التجارة والعلم وهما اللذان ساقاه الى الاسفار الى مختلف البلدان والامصار فكان تاجرا وعالما فاضلا .

وجاء فى مقال للاستاذ المحقق الدكتور مصطفى جواد بعنوان (تجارة العراق فى القرن السادس الهجرى) الذى نشره فى مجلة غرفة تجارة بغداد ما نصه ننقله بالحرف :ـ « وكان تجار العراق يبعدون فى سفراتهم تشريقا وتغريبا وفى جهات الشمال والجنوب من البر والبحر . » فمما ذكره لنا المؤرخون استطرادا ان تاجرا من اهل واسط استأذن الشيخ محمد ـ قال فى الحاشية يعرف اليوم بالامام الدورى وامام

التاجر الواسطى ولد سنة ٦٧١ هـ . فى اوائلها بواسط وقرأ القراءات على جماعة بتلك البلاد وقدم دمشق ثم دخل القاهرة ثم اقرأ الناس ببغداد وواسط والبصرة والبحرين وكان تاجرا سفارا . صنف (المختار) فى القراءة و(الكنز) فى القراءات العشر جمع فيه بين الارشاد للقلانسى وبين التيسير للدانى وزاده ونظمه فى قصيدة لامية سماها (الكفاية) فى ١٢٧٣ بيتا ونظم الارشاد للقلانسى وزاد عليه الادغام الكبير لابى عمرو وسماه (روضة الازهار فى القراءات العشر وائمة الامصار) فى ١١٥٣ بيتا . وصنف (تحفة الاخوان فى ما آرب القرآن) وله فى مقدمة فى النحو سماها (اللمعة الجلية) وقصيدته فى القراءات العشر اولها :ـ

بدأت اقول الحمد لله اولا
الها عظيما واحدا صمدا علا
سميعا بصيرا باقيا متكلما
عليما مريدا قادرا متفضلا

مات فى شوال سنة ٧٤١ هـ . وقال آخرون سنة ٧٤٠ فى ذى القعدة .

الدور في القرية المعروفة به فوق سامراء ـ ابن رستم الكردي المعروف بجاكير المتوفى سنة ٥٩٠ هـ في ركوب بحر الهند بتجارة لان الواسطي كان يعتقده فاذن له في ذلك فسافر وطلب من هناك بلاد الصين ثم عاد رابحا بتجارة حسنة بعد اكثر من ستة اشهر ـ وجاء في الحاشية نقلا عن كتاب « بهجة الاسرار ومعدن الانوار » لنورالدين ابى الحسن على بن يوسف الشطنوفي ص ١٦٩ من سيرة عبدالقادر الجيلي ـ . (مجلة غرفة التجارة الجزء ان التاسع والعاشر من السنة الخامسة ص ٧١٨) .

الصناعة في واسط :

اما الصناعة فلا جرم ان في واسط وكسكر ونواحيهما عدة مصانع ومعامل لمختلف الحاجيات الصناعية . فهنالك معامل للحياكة حيث ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد الستور الواسطية التي استجلب منها الى بغداد الخليفة المقتدر بالله العباسي (٣٧) ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة ما رواه ابن الفوطي في الحوادث الجامعة في حوادث سنة ٦٥١ هـ . (١٢٥٣ م .) عن خياط واسطي حاذق فقال : « وفي سنة احدى وخمسين وستمائة توفي على بن ابى الفوارس المقرىء الواسطي الخياط المعروف بالسبر باريك (٣٨) قدم بغداد واستوطنها وكان حاذقا في الخياطة قيل ان الامير الارنباى (؟) احضره في ليلة العيد وقد عرض عليه ثوب أطلس قد اشتط صاحبه في ثمنه فقال : انا اخيطه ولا اقطعه وتلبسه فان رضى صاحبه بما يعطى والا يعد عليه .

فقال له : افعل ذلك . ففعل وجاء صاحبه واصر على الاشتطاط ففتق وطوى وثقل واعيد عليه . فلما رآه صحيحا رضى بما اعطى » (٣٩)

وهنالك معامل لاستخراج الخمر والنبيذ : فقد جاء في معجم الادباء لياقوت الحموى ان جحظة البرمكي تحدث في أماليه قال : قال لى عبدالله بن حمدون . . . ونظرت فيما وصلنى به المستعين في مدة خلافته وهى ثلاث سنين ونصف فكان اكثر مما وصلنى به المتوكل . ثم خلع المستعين وحدر الى واسط ومنع من كل شيء الا القوت فاشتهى نبيذا فخرجت دايته الى اهل واسط فتشكت ذلك اليهم فقال لها رجل من التجار : له عندى كل يوم خمسة ارطال نبيذ دوشاب (٤٠) فكانت تمضى اليه في كل يوم

(٣٧) المقدمة من كتابه صفحة ٥٢ وراجع ص ٥٤ من كتاب تجارة العراق قديما وحديثا لصاحب المعالى الاستاذ يوسف غنيمة .

(٣٨) قال مصححه والمعلق على حواشيه الدكتور مصطفى جواد : هكذا وردت وما نعرف حقيقته لقلة المصادر .

(٣٩) ص ٢٧٠ من الكتاب المذكور .

(٤٠) جاء في كتاب شفاء العليل ص ٨٧ ما نصه . « دوشاب . نبيذ التمر معرب قال ابن المعتز

لا تخلط الدوشاب في قدح
بصفاء ماء طيب البرد

وقال ابن الرومى :ـ

علنى احمد من الدوشاب
شربة نغصت على شبابى

وفسر في شرحه بالنبيذ الاسود وقال السمعانى انه الدبس بالعربية »

وقد ورد ذكره في كتاب الاغانى في عدة اماكن منه هكذا : الخمر الدوشابى . ويطلق سكان

فتجيئه به سرا الى ان حمل من واسط فقتل بالقاطول . »(٤١) وذكرلنا ياقوت ايضا فى معجم الادباء الحكاية الآتية فى ترجمة على بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ما نصه : « . . . . . وقرأت فى المفاوضة : حدثنى الوزير ابو العباس عيسى بن ماسرجيس قال كنت اخلف الوزارة فى بغداد مشاركا لابى الحسن على بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان فدعانى يوما الى داره ببركة زلزل(٤٢) وتجمل واحتشد ودعا بكل من يشار اليه بحذق فى الغناء من رجال واماء مثل (علية الخاقانية) وغيرها من نظرائها فى الوقت وحضر القاضى ابو بكر بن الازرق نسيبه وانتقلنا من الطعام الى مجلس الشراب . فلما دارت الكأس ادوارا قال لى ما اراك تحلف على القاضى ليشرب معنا ويساعدنا وان كان لا يشرب الا (قارصا) قلت انا غريب ومحتشم له وامره بك امس وانت به اخص . قال فاستدعى غلاما وقال امض الى اسحاق الواسطى واستدع منه قارصا وتول خدمة القاضى ايده الله فمضى الغلام وغاب ساعة ثم اتى ومعه خماسية فيها من الشراب الصريفينى(٤٣) الذى بين ايدينا الا ان

العراق الجبليين فى الشمال والشمال الشرقى لفظة دوشاب باللغة الكردية بمعنى الدبس والدبس يصنع من الزبيب فى الاماكن الشمالية من العراق .

(٤١) ج ٢ ص ٢١٧ من طبعة مرجليوث

(٤٢) هى محلة فى جانب الكرخ من بغداد قال ياقوت هى بغداد بين الكرخ والسراة وباب المحول وسويقة ابى الورد . وكان زلزل هذا ضاربا بالعود يضرب به المثل بحسن ضربه وكان من الاجواد وكان فى ايام المهدى والهادى والرشيد وكان غلاما لعيسى بن جعفر بن المنصور وكان فى موضع البركة قرية يقال لها سال بقباء الى قصر الوضاح فحفر هناك بركة ووقفها على المسلمين ونسبت المحلة باسرها اليه . . . فقال نفطويه النحوى وهو ابراهيم بن عرفة الواسطى فى ذلك :ـ

لو أن زهيرا وامرأ القيس ابصرا
ملاحة ما تحويه بركة زلزل
لما وصفا سلمى ولا ام جندب
ولا اكثرا ذكر الدخول فحومل

قال اسحاق بن ابراهيم الموصلى كان برصوما الزامر وزلزل الضارب من سواد الكوفة قدم بهما ابى معهما ستة حجج ووقفهما على الغناء العربى واراهما وجوه النغم وثقفهما حتى بلغا المبلغ الذى بلغاه من خدمة الخلفاء وكان الرشيد قد وجد على زلزل وحبسه سنين وكانت اخت زلزل تحت ابراهيم الموصلى . . . فقال فى قصة ذكرتها فى

اخبار ابراهيم من كتاب اخبار الشعراء الذى جمعته واسم زلزل منصور :ـ

هل دهرنا بك عائد يا زلزل
ايام يبغينا العدو المبطل
ايام انت من المكاره آمن
والخير متسع علينا مقبل

(معجم البلدان مادة البـاء والراء ج ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ من طبعة مصر)

(٤٣) لقد اورد ياقوت فى معجم البلدان فى مادة صريفون وصريفين عدة اماكن وقرى فى العراق وغيره مثل صريفين واسط وصريفين الكوفة وصريفين قرب بغداد بين اوانا وعكبراء الا انه قال :ـ يلزمه الاعراب كما يلزم الاسماء المفردة التى لا تنصرف فتقول هذه صريفين ومررت بصريفين والنسبة اليه والى امثاله على هذا القول صريفى وعلى هذه اللغة . قال الاعشى فى نسبة الخمر الى هذا الموضوع :ـ

صريفية طيب طعمها
لها زبد بين كوز ودن

وللاستيضاح راجع ج ٥ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ من المعجم المذكور ط مصر

على رأسها كاغداوختما وسطرا من مكتوب (قارص من دكان اسحاق الواسطى) . قال فتأمله القاضى وابصر الخط والختم ثم امر فسقى رطلا فلما شربه واستوفاه قال للغلام ويلك ما هذا ؟ . قال يا سيدى هذا قارص . قال لا بل والله الخالص ثم ثنى له وثلث فاضطرب أمر القاضى علينا وانشأ يقول :ـ

الا فأسقنى الصهباء من حلب الكرم
ولا تسقنى خمرا بعلمك او عامى
ليست لها اسماء ستى كثيرة
الا فاسقنيها واكن عن ذلك الاسم

فكان كلما اتاه بالقدح سأله عنه فيقول تارة مدام وتارة خندريس وهو يشرب فاذا قال له خمر رده واستخف به فيتوارى بالقدح ساعة ثم يعيده ويقول هذه قهوة فيشرب به فلم يزل يشرب القاضى الا بمقدار ستة اسماء أو سبعة من اسماء الخمر حتى تبطح فى المجلس ولف فى طيلسان ازرق عليه وحمل الى داره »[٤٤] وعلى هذا فيكون القارص هذا نوعا من الشراب اختص به اسحاق الواسطى الذى كانت له دكانا (كذا) فى بغداد يبيع فيها هذا النوع من الشراب ويوضع كاغد مختوم مكتوب عليه هذه العلامة الفارقة (قارص من دكان اسحاق الواسطى) على قوهة القنينة كما هو متبع اليوم فى كل انواع المشروبات الافرنجية والمحلية .

وقد نقل هذه الحكاية المسرودة آنفا آدم متز فى كتابه المذكور سابقا بصورة موجزة[٤٥] . ونقل نعمة الله الجزائرى صاحب كتاب (زهر الربيع) الخبر الآتى :ـ ذكر صاحب القاموس ان كسكر قصبة واسط كانت تزرع فيها الاقلام واقلامها حسنة جدا وينقله التجار والمترددون الى اقطار العالم واطراف البلاد . وكان خراجها[٤٦] فى ذلك الوقت اثنا عشر الف الف مثقال من الذهب فتكون اثنى عشر لكا من الدنانير . ويقول مؤلف الكتاب ان واسط محسوبة من بلادنا اعنى الجزيرة وقبل خروجنا منها كنا نكتب فى اقلامها وفى هذه الاعوام ذهبت منها الاقلام لفقد اهلها وعامريها وصارت الاقلام منحصرة فى بلدة تستر[٤٧] .

ونختتم البحث هنا بقول المستشرق الالمانى شريك نقلا عن العلامة المستشرق دوزى حيث قال :ـ « ان المنتوجات التى تستحق الذكر فى واسط هى الاقمشة الثمينة المصنوعة فيها فكانت تخرج الى البلدان من المعامل الواسطية وتجارتها[٤٨] . هذا ما تيسر لى الحصول عليه فى بحوثى عن مدينة واسط ولعلنى اعثر على متون اخرى فى هذا الصدد لاشباع هذا الموضوع القيم النفيس ومن الله التوفيق » .

بغداد — يوسف يعقوب مسكونى

(٤٤) معجم الادباء ج ٥ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ط مرجليوث .
(٤٥) آدم متز الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٤٦) تقرأ منصوبة بفتح الجيم لانها خبر متقدم لكان و(اثنا عشر) اسمها وقد أخر .
(٤٧) كتاب زهر الربيع لنعمة الله الجزائرى ص ١٢٩ من الطبعة الحجرية فى بمبى
(٤٨) دوزى الجزء الثانى من الملحق ص ٨٠٢
Dozy Suppl. 26. 802